ردمد ٢٠٨١ - ١٦٠٧

آفاق الثقافة والتراث

مجلة فصلية ثقافية تراثية

تصدر عن دائرة البحث العلمي والدراسات بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

السنة الخامسة عشرة : العدد السابع والخمسون - ربيع الأول ١٤٢٨ هـ - أبريل (نيسان) ٢٠٠٧ م

كتاب «معجزات الأنبياء» لابراهيم نظير الأدرنوري الرومي، تاريخ النسخ سنة ١١٣٤ هجري، مكتوب باللغة التركية.

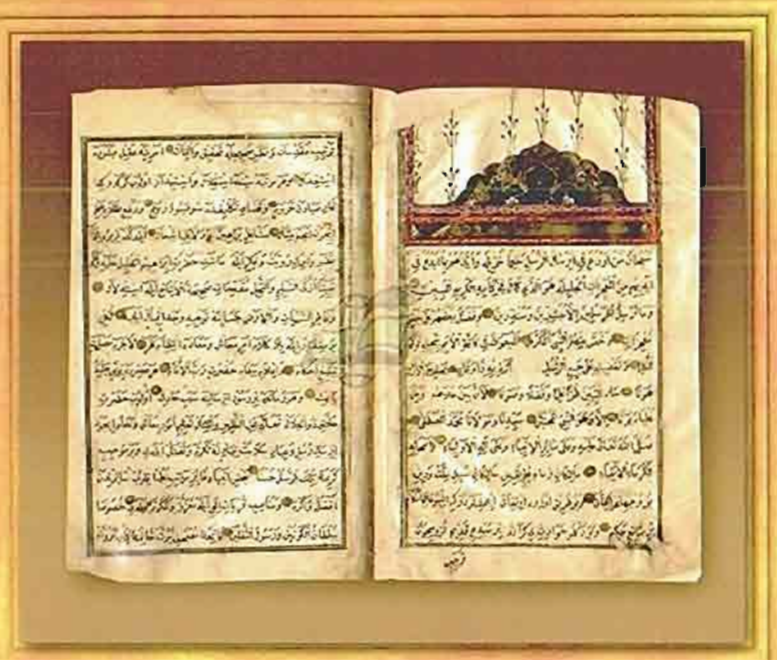

Book of "Moojizat Al-Anbya" to Ibrahim Nadheer Al-Adarnoori AL-Roumi, Copied in 1134 A.H in Turkish Language.

رحلة ابن رَشِيد البغدادي إلى الحرمين
[661 هـ - 1263م]

رحلة ابن رَشِيد البغدادي إلى الحرمين [٦٦١ هـ - ١٢٦٣م]

تحقيق:
أ. د. عبد الهادي التازي
الرباط - المغرب

بسم الله الرحمن الرحيم

كنت وما أزال ولعلّي أبقى، من الذين يهتمون بالرِّحَل. لأني أعدُّ أنّ هذا النوع من الأدب يهدف أولاً وبالذات إلى معرفة الآخر. و أعدُّ أنّ هذا النوع من التعرّف. ضرب من ضروب التصوف. قصد بعض الرحالة ممارسته حتى يعرفوا ما وراء بيوتهم... حتى لا يبطروا معيشتهم ولا يستهينوا بما يوجد داخل بيوتهم.

إنَّ كل الكتب التي نستمتع بقراءتها. على اختلاف فنونها. تقتصر على أن تجعل منّا قرّاءً لما يحرره أولئك الكتّاب دون ما أن نعرف شيئًا عنهم عن مشاعرهم. عن اختياراتهم. الحوار مفقود بين الكتاب وقارئه إلا مع الرِّحالة... أنت ترافقه وتتارن وتتارق بينه وبينك. بين زمانك وزمانه. تفرح بما تفوقت عليه فيه... ذلك جانبٌ من جوانب فائدة الرِّحلة والرحالة...

كان من تلك الرِّحل التي لازمتني وكتبت عنها رحلة أبي العباس أحمد بن أبي عبد الله محمد بن ناصر الدرعي... أعجبتُ بها لما احتوته من فوائد تؤكد لي عن الوضع الدولي الذي أمسى بمكة بعد فرض ركن الحج...ولا سيما والشيخ يهتم بالتاريخ السياسي للعالم الإسلامي عندما نبَّه مثلاً إلى ما نقله عن ابن بطوطة مما يتصل بالتاريخ الذي يجمع بين أقطار المغرب الكبير على عهد السلطان أبي عنان[1].

كانت الرحلة مصدرًا من مصادر تاريخ المغرب وبخاصةً منه الجانب الثقافي والاجتماعي. وأنه بالرغم من اشتغال الباحثين بها[2]. فإن الرِّحلة ما تزال في حاجةٍ إلينا لتتبع مسالكها واستجلاء غوامضها...

وقد كان مما استرعى انتباهي فيها قضية توثيق ما فيها من الشِّعر وتخريجهِ على حدّ تعبير النقاد.

تتبعت شيخنا العلامة الواصل أبا العباس فيما استشهد به من أشعار.. وكانت ملاحظاتي العامة أنه كان يكتفي بقوله: ولله در القائل... أو قال الشاعر....

وقد عايشته في هذا السلوك منه ولم يهمني. بصراحة أن أعرف عن بعض الأبيات الشعرية التي اعتاد

---

(١) القصد إلى احتلال مدينة طرابلس من قبل الجنويين وإقتداء السلطان أبي عنان بإعادتها لأهلها... الرحلة الناصرية:١/ ٦٤ -٦٥. طبعة حجرية بفاس ١٣٢٠ = ١٩٠٢. د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب:٧/ ٣٤. وما بعدها رقم الإيداع القانوني ١٩٨٦/٢٤.

(٢) كان في أخر ما قرأته عن هذه الرحلة كما كتبه الأستاذ الدكتور أحمد عمالك في رسالته بعنوان: الزاوية الناصرية ودورها الاجتماعي والسياسي. وهي أطروحة قدمها مستحقًا لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ بكلية الآداب جامعة محمد الخامس ١٤٢٢ =٢٠٠١.

الناس ترديدها. إلا أنني وجدت نفسي مع قصيدةٍ ذات قافية مختومة بالهاء المرفوعة... ردد أبياتها أكثر من مرة دون أن يوثّقها وينسبها لقائلها... الأمرُ الذي استوقفني كثيرًا...

وقد كنت شخصيًا من بين "الغافلين" إذا صح هذا التعبير. الذين تعرضوا للتعقيب والمتابعة مشرقا ومغربًا عندما أهملت توثيق بعض الأشعار التي وردت في تحقيقي لرحلة ابن بطوطة التي صدرت عن أكاديمية المملكة المغربية[٣].

ولكني رحبت بالزملاء الذين تعقبوني وعددت ذلك من باب إثراء البحث وإغنائه. فإنّ العلم على المناقشة أثبت منه على المتابعة. كما كان شيوخنا يقولون[٤].

وقد زاد في فضولي واستطلاعي أن بعض الرحّالة اللاحقين تمثل بأبياتٍ من هذه القصيدة. أمثال أبي مدين الدرعي. والمنالي الزبادي ١١٦٣ = ١٧٥٠. وابن الطيّب الشركي ١١٧٠ = ١٧٥٧. والورثيلاني ١١٩٣- ١٧٧٩.

وكان البصيص الأول الذي هداني إلى الطريق أن أقفَ على بعض هذه القصيدة يتمثل بها المقّري الحفيد ١٠٤١ = ١٦٣٢ أثناء طوافه. مشيرًا بأسلوبه الأدبي الخاص إلى صاحب القصيدة الذي نعته بقوله: (مَنْ ربعُه بالتّقوى مَشِيد البغدادي الشّهير بابن رَشيد)[٥]:

لقد كان المقّري يقصد دون شك إلى ابن رشيد البغدادي صاحب الوتريات. الذي حج عام ٦٦١ = ١٢٦٣ وليس ابن رُشَيّد السبتي الذي يُشكل بضمِّ الراء مصغرًا الذي حج بعد هذا بنحو ستة عقود...

وهكذا توقفنا على اسم الشاعر الذي اهتم به - بصفة محدودة - بعض المؤلفين المغاربة في الماضي والحاضر... وبقي علينا أن نجمع شتات هذه الأبيات لنقف على سائر ما قاله ابن رَشِيد البغدادي الذي. كما أشرنا يُعرف بالوتّري: لأنه نظم عددا من القصائد الوترية في مدح خير البرية. وقد ترجمه ابنُ عبد الملك المراكشي في تأليفه الذيل والتكملة[٦].... ترجمة واسعة ولكن من غير أن يذكر شيئًا عن قصيدته الهائية موضوع حديثنا.... ولو أنه أي المراكشي قدم لنا معلومةً هامةً تتعلق بإعلان ابن رشيد في مجالس

---

(٣) رحلة ابن بطوطة: تقديم وتحقيق عبد الهادي التازي. مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية. سلسلة التراث. رقم الإيداع القانوني: ٣٢١ /١٩٩٧م.

(٤) د. هلال ناجي: هوامش على رحلة ابن بطوطة. مجلة العرَب لصاحبها حمد الجاسر. شوال ١٤٢٠ يناير ٢٠٠٠م.

د. نجاة المريني: ما أخل به الهامش عند التعليق. العلم الثقافي. ٧ دجنبر ٣٠ - دجنبر ٢٠٠١.

(٥) المقري: نفح الطيب. طبعة بيروت. تح. إحسان عباس: ٥/٢٤٢.

(٦) ابن المراكشي: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة. القسم الأول. تح. محمد بنشريفة. مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ١٩٩٨/ ١٧٤. عبد الله كنون: ترجمة الواعظ البغدادي. مجلة البحث العلمي. ع٧. ١٣٨٦ ١٦٦٦. د. عبد الهادي التازي: حجة ابن رشيد من خلال قصيدته الذهبية. بحث قدم لمجمع اللغة في دورته ٢٠٠٦.

وعظه بمراكش، عن الحادثة الشنعاء التي وقعت في بغداد، يعني اجتياح التتر للعاصمة العباسية عام ٦٥٦هـ. ومعنى هذا أن أخبار المشرق كانت تصل إلى المغرب على نحو ما تصل أخبارُ هذا المغرب إلى المشرق، كما كنا نسمع من ابن بطوطة وهو يتحدث عن أخبار بلاده التي كانت تصله وهو يتنقل من مكان إلى مكان.....

ويظهر من كلام ابن عبد الملك المراكشي أن ابن رَشيد أقام بمراكش مدة، ثم رحل إلى الأندلس ودخل غرناطة... ثم كر راجعًا إلى مراكش حيث أقام بها حقبة قبل أن يلتحق بالمشرق بغية القيام بأداء فريضة الحج في موسم ٦٦١ = ١٢٦٣.

وبعد أداء المناسك أخذ الطريق إلى المغرب مؤمِّلاً العودة إلى مراكش لكن أجله أدركه بتونس عقب صلاة الجمعة لليلةٍ بقيت من المحرم سنة ثلاث وستين وستمائة (٢١ نونبر ١٢٦٤).

فماذا عن نشاطه في الحرمين الشريفين؟ وهل إنّ مثل ابن رَشيد يمكن أن يمر بتلك الديار دون أن يترك بَصمات هناك ؟

هذا ما حدا بي إلى العودة إلى المصادر الشرقية التي لم يفتها الحديث عن بعض الشخصيات المغربية الوازنة التي كانت تمر بتلك الجهات. وهل ننسى ما ألّفه الإمام العلامة الحافظ أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد المكي المالكي أحد قضاة مكة المتوفى عام ٨٣٢. هل ننسى ما ألفه عن مكة والمدينة؟

لقد كان مما أسهمتُ به استجابةً لمؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي التي يوجد مقرها في لندن، بمناسبة إعلان مكة عاصمة للثقافة، كان مما أسهمتُ به تأليفي (رحْلة الرِّحلات) الذي يقع في مجلدين اثنين[٧].

هنا وأنا أعدُّ (فهرس القوافي) لتأليفي هذا، اكتشفت أمر حجة ابن رَشيد، اكتشفت أخبارها، التي غابت عن أهل المغرب الذين ودعوه منذ عام ٦٦١ = ١٢٦٣، ولم يمكنهم أن يقتفوا أثره بعد ذلك التاريخ إلا بترديد أخبار نعيه وهو على أبواب تونس... ولم يُستثن من هذا الصَّمت المطبِق أحدٌ من السابقين بمن فيهم ابن عبد الملك المراكشي واللاحقين بمن فيهم زميلنا الراحل الشيخ عبد الله كنون....

ويتساءل الباحث كيف أن سائر الذين تحدثوا عن خزانة تامكروت، أجمعوا أن المؤسسين كانوا حريصين على تغذيتها بأعيان المؤلفين، لكن القصيدة موضوع الحديث والتي أوردها الشيخ أبو العباس دون شيخه أبي سالم، لم يُرَ لمؤلفها ذكر.....

وهنا أذكر تشنيع الجاحظ على الذين يرددون عبارة ما ترك الأول للآخر ما يقول فلو سكت آخرنا لما تمت الفائدة لمن يأتي بعدنا(٨).!

(٧) د. التازي: رحلة الرحلات، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ١٤٢٦ = ٢٠٠٥، مكة المكرمة، رقم الإيداع ١٤٢٥/٣٨٣٠.

(٨) على ذكر هذه الهنائية أُنبه لما ورد منسوبًا لمحمد بن عبد السلام الناصري: في الإعلام:٦/١٩٥:

لله في الخلق ما اختارتْ مشيئته ... ما الخيرُ إلا الذي اختاره الله

هناك في المشرق وفي مكة المكرمة بالذات حيث لبيت الدعوة لحضور لقاءات جامعة أم القرى بمناسبة الاحتفال بمكة. كان مما خفف عني العبء أن تقع يدي على جزئي (شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام)[٩]. تأليف قاضي مكة الإمام تقي الدين محمد بن علي الفاسي المكي المالكي (ت٨٣٢هـ) . ثم كان وقوفي[١٠]. شخصيًا على مخطوطتين اثنتين لشفاء الغرام بمكتبة جامعة أم القرى كانتا وراء حسم الموضوع تقريبًا. حيث تحصَّلت لدي هذا الفائدة الجليلة التي لم تعلق بها يد أحدٍ من قبل، لا في الصيف ولا في الشتاء. والله يؤتي فضله من يشاء !

قد تأكد لي أنه كان لابن رَشيد البغدادي نشاطه الملحوظ بمكة المكرمة وبسائر المناسك: تجلى في صدر ما تجلى في نظمه لقصيدةٍ طويلةٍ بلغت في مجموعها زهاء مائةٍ وخمسين بيتًا. رَوِّيها الهاء المرفوعة....

وقد حملت القصيدة عند تقي الدين الفاسي عنوانًا جميلا وشاملا لموضوعيها الاثنين: هو حسب المخطوطتين اللتين توفرنا على صورتهما " الذهبية في الحجة المكية والزورة المحمدية .

وهكذا نرى أن هذه القصيدة " الذهبية" وصلت إلى التقى الفاسي عن طريق سندٍ صحيحٍ موصول يرويه الفاسي عن المعمّر بن محمد بن داود الصالحي إذنًا مكاتبة[١١]. وعن طريق الأصيلةِ أم الحسن فاطمة، بنت مفتي مكة شهاب الدين أحمد بن قاسم العمري إذنًا مشافهة[١٢] عن الإمام المحدث فخر

(٩) طبعة ثانية ١٩٩٩ - الناشر مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة بمكة - باب العمرة:٢/٤٨١-٤٨٧. وإني لأشكر بهذه المناسبة الدكتور حسين محمد بافقيه رئيس تحرير مجلة الحج والعمرة سابقًا الذي أتحفني بالشفاء والعقد الثمين وكذا منائح الكرم....

(١٠) أوقفني سعادة الزميل الدكتور عدنان محمد الفايز الحارثي عميد شؤون المكتبات بجامعة أم القرى. وأستاذ الحضارة الإسلامية على مخطوطتين اثنتين كشفتا لي عن حقيقة أمر الذهبية". ونحن نغتنم أيضا هذه الفرصة لنجدد الشكر لطاقم المكتبة وخاصة السيد العميد، وكذا الأستاذ فريد علي يحيى الغامدي على سرعة استجابته ولا سيما في ظروف كنت فيها بحاجة إلى النجدة السريعة!

(١١) ترجم التقي الفاسي في كتابه العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين (منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٤١٩ =١٩٩٨ ج١١/١٧٣). أقول: ترجم لهذا الرجل فذكر أنه محمد بن داود بن ناصر السنني الدمشقي يلقب ناصر الدين، ويعرف بالصالحي الشافعي الصوفي. نزيل مكة قال: وكان الصالحي رجلاً صالحًا. جاور مكة مدة، وكان يسكن برباط ربيع مكة، وبها توفي لليلة الأربعاء الثاني من شهر ربيع الأول سنة سبع وستين وسبعمائة ودفن بالمعلاة. قال الفاسي: ومن حجر قبر نقلت وفاته....

(١٢) ترجم لها التقي الفاسي في الجزء السادس من العقد الثمين فذكر أنها فاطمة بنت أحمد قاسم بن عبد الرحمن بن أبي بكر الحرازي مسندة مكة، أم الحسن، ويقال لها أم نجم الدين مفتي مكة، شهاب الدين. ولدت بعد سنة عشر وسبعمائة. أجاز لها الفخر التوزري... حدثت وسمع عنها الأعيان من شيوخ التقي الفاسي وغيرهم. وسمع الفاسي عليها الثمانيات العشرة بالمدينة المنورة (١١/من العقد ٤٤) لمَّا كان مجاورًا بالمدينة. وبها توفيت أوائل شوال سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة.

الدين عثمان بن محمد بن عثمان المالكي أنشدهما إذنًا مشافهة[١٣]. قال أنشدنا الأديب أبو بكر[١٤] محمد بن (محمد) بن عبد الله بن رشيد البغدادي. قال في قصيدة نفيسة سماها الذهبية في الحجة المكية والزورة المحمدية.

وأفضّل أن أتي على ذكر القصيدة على نحو ما فعله التقي الفاسي عندما اختار منها هذه الأبيات. على ما يدل عليه تعبيره (ومنها قوله) الذي تكرر خمس عشرة مرة. على أن آتي فيما بعد بما بقي منها مما التقطتُه محيلاً على مراجعه....

قال التقي الفاسي: جاء في الذهبية:

(١)فيا أين أيامٌ تولّت على الحما ... وليلٌ مع العشاق فيه سهرناد

(٢)ونحن لجيران المحصَّب جيزة ... ونوفي لهم حُسن الوداد ونرعاد

ومنها قوله:

(٣)فهاتيك أيامُ الحياة، وغيرها ... ممات، فيا ليت النّوى ما شهدناه!!

(٤)ويا ليت عنّا أغمض الدهر طرفه! ... ويا ليت وقتًا للفراق فقدناه

(٥)وترجعُ أيام المُحصَّب من منى ... ويبدو ثراه للعيون وحصباه

(٦)وتسرح فيه العيس بين ثمامة ... وتستنشقُ الأوراخ طيب خزاماه

ومنها قوله:

(٧)فشدّوا مطايانا إلى الربع ثانيًا ... فإن الهَوَى عن ربْعهم ما ثنيناه!

(٨)ففي ربْعهم لله بيت مبارك ... إليه قلوب الخلق تهوي وتهواه

---

(١٣) ترجم له التقي الفاسي في الجزء الخامس من العقد الثمين فذكر أنه عثمان بن محمد بن عثمان بن أبي بكر بن محمد بن داود. الشيخ فخر الدين التوزري المالكي نزيل مكة. ويكنّى أبا عمر. أصله من بلاد الفيوم وقدم مصر فتعلم بها على كثير من الأعلام المشايخ ودرس معظم كتب الحديث الشريف. وذكر البرزالي أن شيوخه يزيدون على الألف.

وقد قدم الحجاز سنة سبع وخمس وستمائة. ولم يزل يتردد إلى الحجاز إلى أن قدمه سنة تسعين واستمر مقيمًا بمكة إلى أن درج بالوفاة إلى رحمة الله يوم الأحد حادي عشر من ربيع الآخر سنة ثلاث عشر وسبعمائة. وصُلّي عليه في مقام إبراهيم ودفن بالمعلاة... وهذا السيد الجليل عثمان هو الذي سمع بمكة بعد أن قدم الحجاز عام ٦٥٧ على ما قلنا - سمع القصيدة النفيسة الذهبية من ابن رشيد.

(١٤) أجمعت المصادر المغربية على ذكر الاسم هكذا: محمد بن أبي بكر... ومن هنا نتساءل عن اتفاق المخطوطتين المشرقيتين على ذكر هذا الاسم هكذا: أبو بكر محمد. ونحن نرجّح أن سهوا وقع في المشرق عند الناسخ الذي كتب أبا بكر محمد عوض محمد بن أبي بكر.... ونذكر ختامًا أن ابن رُشيد خلف له بالمغرب أحمد الذي أدركه أجله سنة ٦٧٩. وهو يمارس تدريس الفقه. انظر وفيات الونشريسي....

(٩)يطوف بها الجاني فيغفر ذنبُه ويسقط عنه إثمه وخطاياه

(١٠)وكم لذة!كم فرحة لطوافه فلله ما أحلى الطواف وأهناه!

(١١)نطوف كأنا بالجنان نطوفها ولا همَ. لا غم. جمعًا نفينـاه

(١٢)فيا شوقنا نحو الطواف وطيبه فذلك طيب لا يعبر معناه

(١٣)فمن لم يذقه لم يذق قط لذة فذقه تذق. يا صاح ما نحن ذقناه

(١٤)ترى رجعة أو عودة لطوافنا وذلك الحمى. قبل المنيَة نغشاه

(١٥)فو الله لا ننسى الحمى. فقلوبنا هناك تركناها؛ فيا كيف ننساه

(١٦)و والله لا ننسى زمان مسيرنا إليه؛ وكل الركب يلتذ مسراه

(١٧)وقد نسيت أولادُنا ونساؤنا وإخواننا؛ والقلب عنهم شغلناه

(١٨)تراءت لنا أعلام وصل على اللوى فمن ثمَ أمسى القلبُ عنهم لوياه

(١٩)جعلنا إله العرش نصب عيوننا ومَن دونه خلف الظهور نبذناه

(٢٠)وسرنا نشق البيد للبلد الذي بجهد وشق للنفوس بلغناه

(٢١)رجالاً وركباناً على كلّ ضامر ومن كل فج مقفر قد أتيناه

(٢٢) نخوض إليه البَحْر والبرَّ والدجا ولا مفظع إلا إليه قطعناه!

(٢٣)ونطوي الفلا من شدة الشوق للقا فنمشي الفلا نحكي؛السجل طويناه؟

(٢٤)ولا صدَنا عن قصدنا فقد أهلنا ولا هجرُ جار أو حبيب ألفناه

(٢٥)وأموالنا مبذولة، ونفوسنا ولا نبغي شيئاً منها منعناه

ومنها قوله:

(٢٦)عرفنا الذي نبغي ونطلب فضله فهان علينا كلُ شيء بذلناه

(٢٧)ولو قيل: إنَ النار دون مزاركم دفعنا إليها والعذول دفعناه!

ومنها قوله:

(٢٨)ترادفت الأشواق. واضطرم الحشا فمن ذا له ضَرم وتضرم أحشاه

(٢٩)وأسرى بنا الحادي وأمعن في السَرا وولى الكرى. نوم الجفون نفيناه

ومنها قوله:

(٣٠)نحج لبيت حجه الرسل قبلنا لنشهد نفعاً في الكتاب وُعدناه

(٣١)دعانا إليه الله عند بنائه فقلنا له: لبيك داع أجبناه

(٣٢)وما زال وفد الله يقصد مكة ... إلى أن بدا البيت العتيق وركناه

(٣٣)فضجت ضيوف الله بالذكر والدعا ... وكبرت الحجاج حين رأيناه

(٣٤)وقد كادت الأرواح تزهق فرحة ... لما نحن من عظم السرور وجدناه

(٣٥)وطفنا به سبعاً، رملنا ثلاثة ... وأربعة مشيا كما قد أمرْناه

(٣٦)كذلك طاف الهاشمي محمد ... طواف قُدوم، مثل ما طاف طفناه

(٣٧)وسالت دموع من غمام جفوننا ... على ما مضى من إثم ذنب كسبناه

(٣٨)ونحن ضيوف الله جئنا لبيته ... نريد القرى نبغي من الله حسناه

(٣٩)فنادى بنا: أهلاً ضيوفي، تباشروا ... وقرُّوا عيونا فالحجيج أضفناه!

(٤٠)فأي قرى يعلو قرانا لضيفنا ... وأي ثواب فوق ما قد أثبناه

ومنها قوله:

(٤١)فطيبوا وسيروا وافرحوا، وتباشروا ... تهنُّوا وهمّوا، بابها قد فتحناه!

(٤٢)ولا ذنب إلا قد غفرناه منكم ... وما كان من عيب عليكم سترناه!

ومنها قوله:

(٤٣)و يوم منى، سرنا إلى الجبل الذي ... من البُعد قد حيانا كما قد حييناه!

(٤٤)فلا حج إلا أن يكون بأرضه ... وقوفٌ، وهذا في الصَحاح رويناه

(٤٥)إليه فؤاد المرء يشعر بالهنا ... ولولاه ما كان الحجاز سلكناه!!

(٤٦)وبتنا بأقطار المحصّب من منى ... فيا طيب ليل بالمحصب بتناه

(٤٧)وسرنا إليه طالبين وقوفنا ... عليه، ومن كل الوجوه أممناه

(٤٨)على علميه للوقوف جلالة ... فلا زالتا تحمى وتحرس أرجاه

(٤٩)وبينهما جزنا إليه برحمة ... فيا طيبها! ليت الزحام رجعناه

(٥٠)ولما رأيناه تعالى عجيجنا ... نلبي، وبالتهليل منا ملأناه

(٥١)وفيه نزلنا بكرةً بذنوبنا ... وما هو من ثقل المعاصي حملناه

(٥٢)وبعد زوال الشمس كان وقوفنا ... إلى الليل، نبكي والدعا قد أطلناه

ومنها قوله:

(٥٣)على عرفات قد وقفنا بموقف ... به الذنب مغفور وفيه محوناه!

(٥٤)وقد أقبل الباري علينا بوجهه وقال: ابشروا فالعفو فيكم نشرناه!

(٥٥)وعنكم ضمنا كل تابعة جرت عليكم، وأما حقنا قد وهبناه!

(٥٦)أقلناكم من كل ما قد جنيتم ومن كان ذا عُذر إلينا عذرناه

ومنها قوله:

(٥٧)وطوبى لمن ذاك المقام مقامه وبشراه في يوم التغابن، بشراه!

(٥٨)نرى موقفا فيه الخزائن فتحت ووالى علينا الله منه عطاياه

ومنها قوله:

(٥٩)ودارت علينا الكأس بالوصل والرّضا سُقينا شراباً مثله ما سقيناه

(٦٠)فإن شئت تُسقى ما سُقينا على الحمى فخلى التواني وأقصد محلاً حللناه

ومنها قوله:

(٦١)فظلّ حجيج الله لليل واقفا فقيل: انفروا، فالكل منكم قبلناه

(٦٢)أفيضوا وأنتم حامدون إلهكم إلى مشعر جاء الكتاب بذكراه

(٦٣)وسيروا إليه، واذكروا الله عنده فسرنا ومن بعد العشاء نزلناه

(٦٤)وفيه جمعنا مغربا لعشائنا ترى عابد جمعٌ، بجمع جمعناه؟

(٦٥)وبتنا به منه التقطنا جمارنا وربأً ذكرناه على ما هداناه

(٦٦)ومنه أفضنا حيث ما الناس قبلنا أفاضوا، وغفرانَ الإله طلبناه

(٦٧)ونحو منى ملنا، بها كان عيدُنا ونلنا بها ما القلب كان تمناه

(٦٨)فمن منكم بالله عيَّد عيدُنا فعيدُ منى ربُّ البرية أعلاه

(٦٩)وفيها رمينا للعقاب جمارنا ولا جُرم إلا مع جمار رميناه

ومنها قوله:

(٧٠)وبالخيف أعطانا الإله أماننا وأذهب عنا كل ما نحن خفناه

(٧١)وردت إلى البيت الحرام وفودنا رجعنا لها كالطير حن لمأواه

(٧٢)وطفنا طوافا للإفاضة حوله ولذنا به بعد الجمار وزرناه

(٧٣)ومن بعد ما زرنا دخلناه دخلةً كأنا دخلنا الخلد حين دخلناه!!

(٧٤)ونلنا أمان الله عند دخوله كما أخبر القرآن فيما قرأناه

(٧٥)فيا منزلاً قد كان أبرك منزل ... نزلناه في الدنيا وبيت وطئناه!

(٧٦)ترى حجةً أخرى إليك ودخلةً ... وذاك على ربّ العلا نتمناه

(٧٧)فإخواننا، ما كان أحلى دخولنا ... إليه، ولبثا في حماه لبثناه

(٧٨)فإخواننا أوحشتمونا هنا لكم ... فيا ليتكم معنا وأنا حققناه!!

(٧٩)وبالحجر الميمون لذنا فإنه ... لرب السما في أرضه يمناه

(٨٠)نقبله من حبنا لإلهنا ... فكم لثمة طي الطواف لثمناه

(٨١)على لثمة للشعث والغبر رحمة ... فكم أشعث، كم اغبر قد رحمناه!

(٨٢)وذاك لنا يوم القيامة شاهدٌ ... وفيه لنا عهد قديم عهدناه

(٨٣)ونستلم الركن اليماني طاعةً ... ونستغفر المولى إذا ما لمسناه

(٨٤)وملتزم فيه التزمنا لذنبنا ... عهودا وعفو الله فيه لزمناه

(٨٥)وكم موقف فيه مجاب لنا الدعا ... دعونا به، القصد فيه نويناه

(٨٦)وصلى بأركان المقام حجيجنا ... وفي زمزم ماء طهورا وردناه

(٨٧)وفيه الشفا، فيه بلوغ مرادنا ... لما نحن ننويه إذا ما شربناه

(٨٨)وبين الصفا والمروة الحاج قد سعى ... فإن تمام الحج تكميل مسعاه

ومنها قوله:

(٨٩)وبينا حجيج الله بالبيت محدق ... ورحمة رب العرش تدنو وتغشاه

(٩٠)تداعت رفاق بالرحيل فما ترى ... سوى دمع عين بالدما مزجناه

(٩١)لفرقة بيت الله والحَجَر الذي ... لأجلهما شاق الأمور شققناه!

(٩٢)وودعت الحجاج بيت إلههما ... وكلهم تجري من الحزن عيناه

(٩٣)فللّه كم باكٍ وصاحب حسرة ... يود بأن الله كان توفاه!!

(٩٤)ولا يشهد التوديع يوماً لبيته ... وإن فراق البيت مرٌ وجدناه

(٩٥)فما فرقة إلا والله إنه ... أمرُ وأدهى، ذاك شيء خبرناه

ومنها قوله:

(٩٦)و والله لولا أن نؤمل عودةً ... لذقنا طعام الموت حين فجعناه!

(٩٧)ومن بعد ما طفنا طواف وداعنا ... رحلنا إلى قبر الحبيب ومغناه!

رحلة ابن رشيد البغدادي إلى الحرمين [٦٦١هـ - ١٢٦٣م]

وأعتقد أننا لسنا بحاجة لأن نستعرض موضوعات القصيدة. لكنا نذكر إنّ هناك ملاحظتين اثنتين:

الأولى : أن أسلوب ابن رَشيد في " الذهبية" لم يكن يختلف عن أسلوبه في " الوتريات" فهو يفضل البحر الطويل. وهو يسير على هواه وتلقائيته دون التعلق بالأساليب المتكلّفة التي قد تحيد به عن بساطته ووضوح كلامه.

الملاحظة الثانية: أن ما عهدناه في ابن رَشيد. وهو في الوتريات. من الإشارة. في بعض الأبيات لأية قرآنية أو حديث نبوي هو نفس الأسلوب الذي ركب متنه وهو ينظم (الذهبية).

لنقرأ هذه الأبيات:

وسرنا نشق البيد للبلد الذي	بجهد وشق للنفوس بلغناه!
رجالاً وركباناً على كل ضامر	ومن كل فج مقفر قد أتيناه!
نخوض إليه البحر والبر والدجا	ولا مفظع إلا إليه قطعناه!

سيكون من السهل جدًا أن نتلمس هذا المعنى في معظم المناسك التي ذكرها فلا حاجة إذن لتتبع تفاصيل ذلك...

فماذا بعد هذا عما استأثر الرحالة المغاربة بذكره من " الذهبية" مما لم يقع عليه اختيار التقي الفاسي؟!

هنا نذكر أنّ نصيبًا أوفر من هذه الأبيات يوجد في الرحلة عند الشيخ أحمد بن ناصر....

وحتى استوعب كل الأبيات سواء منها " المختارة" من لدن المصادر الشرقية أو المذكورة في المصادر المغربية. فإنني أورد هنا ما عثرت عليه في الرحلة. وهكذا ففي الجزء الأول من الرحلة المطبوعة بفاس[١٥]: يقول الشيخ الناصري من غير أن ينسب الشعر:

(١)وسرنا كأموات لففنا جسومنا	بأكفاننا، كل ذليل لمولاه
(٢)لعل يرى ذل العباد وكسرهم	فيرحمهم رب يرجون رحماه
(٣)ينادونه: لبيك! لبيك! ذا العلا	وسعديك كل الشرك عنك نفيناه
(٤)ولو كنت يا هذا تشاهد حالهم	لأبكاك ذاك الحال في حال مرآه
(٥)وجوههم غبر وشعث رؤوسهم	فلا رأس إلا للإله كشفناه

(١٥) تم طبع الرحلة أيام السلطان المولى عبد العزيز بالمطبعة الفاسية يوم ٢٢ ربيع الثاني عام ١٣٢٠ = ٣٠ يوليه ١٩٠٢. وقد كان شيخنا الأستاذ الباشا الحاج محمد الصبحي يُعلّق في بعض فترات الرحلة مما جعل النسخة مفيدة.

نرى من واجبنا أن نشكر الأستاذ أحمد الصبحي حفيد شيخنا صاحب المكتبة الصبيحية المنسوبة إليه بمدينة سلا على المساعدة الثمينة. أنظر:١١/١٨١ -١٨٢. عند حديثه عن رابغ حيث يتهيأ المغاربة للإحرام.

(٦)لتزداد روعاً من خضوع لربنا — وما كان من درع المعاصي خلعناه

(٧)وذاك قليل في كثير ذنوبنا — فقد طال ما رب العباد عصيناه!

(٨)إلى زمزم زمت ركاب مطايانا — ونحو الصفا عيس الوفود صففناه

(٩)تؤم مقاماً للخليل معظماً — إليه استبقنا، والركاب حثثناه

(١٠)ونحن نلبي في صعود ومهبط — كذا حالنا في كل مرقى رقيناه

(١١)فكم نشز عال قد علته وفودنا — وتعلو لنا الأصوات حين علوناه

(١٢)نحج لبيت حجه الرسل قبلنا — لنشهد نفعاً في كتاب وعدناه

(١٣)دعا إليه الله عند بنائه — فقلنا له: لبيك داع أجبناه

(١٤)أتيناك لبيناك، جئناك، ربنا — إليك هربنا والأنام تركناه

(١٥)ووجهك نبغي، أنت للقلب قبلةٌ — إذا ما حججنا أنت بالحج رمناه

(١٦)فما البيت؟ ما الأركان؟ ما الحِجْر؟ ما الصفا؟ — وما زمزم؟أنت الذي قد قصدناه!

(١٧)وأنت منانا،أنت غاية سؤلنا — وأنت الذي دنيا وأخرى أردناه

(١٨)إليك شددنا الرحل نخترق الفلا — فكم فدْفد في السواد خرقناه!

(١٩)كذلك ما زلنا نحاول سيرنا — نهارا وليلاً عيسنا ما أرحناه!

(٢٠)إلى أن بدا إحدى المعالم من منىً — وهبّت نسيم للوصال نشقناه!

(٢١)ونادى بنا حادي البشارة والهنا — فهذا الحمى، هذا تراه غشيناه!!

يضاف إلى هذا العدد ٢١ بيتًا ما ورد أيضا بالرحلة المطبوعة صفحة ١٩٠ -١٩١ من أبيات تصل إلى عدد ٢٢. وقد أوردها الشيخ الناصري غير منسوبةٍ هكذا: قال قائلهم:

(١)وما زال وفد الله يطلب مكة — إلى أن بدا البيت العتيق وركناه

(٢)فضجت ضيوف الله بالذكر والدعا — وكبرت الحجاج حين رأيناه

(٣)وقد كادت الأرواح تزهق فرحة — لما نحن من عظم السرور شهدناهُ

(٤)تصافحه الأملاك من كان راكبا — وتعتنق الماشي إذا تتلقاه!

(٥)وطفنا به سبعاً، رملنا ثلاثةً — وأربعة مشياً كما وعدناه

(٦)كذلك طاف الهاشمي محمد — طواف قدوم، مثال ما طاف طفناه

(٧)وسالت دموعٌ من غمام جفوننا — على ما مضى من إثم ذنب كسبناه

(٨)ونحن ضيوف الله جئنا البيته — نريد القرى، نبغي من الله حسناه

(٩)فنادى بنا: أهلا ضيوفي، تباشروا — وقروا عيونا فالحجيج أضفناه

(١٠)غدا تنظرون في جنان خلودكم — وذاك قراكم مع نعيم ذخرناه

(١١)فأي قرى يعلو قرانا لضيفنا؟ — وأي ثواب فوق ما قد أثبناه

(١٢)وأبدانكم قد طهرت من ذنوبكم — وما كان من رين القلوب غسلناه

(١٣)وكل مسيء قد أقلنا عثاره — ولا وزر إلا عنكم قد وضعناه

(١٤)ولا نصب إلا وعندي جزاؤه — وكل الذي أنفقتموه حسبناه!

(١٥)سأعطيكم أضعاف أضعاف ضعفه — فطيبوا نفوساً، فضلنا قد أفضناه

(١٦) رفعت لكم ما لم تر العين مثله — ولا علمت نفس بما قد رفعناه

(١٧)فيا مرحبا بالقادمين لبيتنا — إليَّ حججتم لا لبيت بنيناه

(١٨)علي الجزا مني المثوبة والرضى — ثوابكم يوم الجزا نتولاه

(١٩)وجاهي واجلالي وعزي ورفعتي — وجودي ومن قد امنًا ما رددناه

(٢٠)فطيبوا سروراً وافرحوا وتباشروا — وتيهوا وهيموا بابنا قد فتحناه!

(٢١)ولا ذنب إلا قد غفرناه عنكم — وما كان من عيب عليكم سترناه

(٢٢)فهذا الذي نلناهُ يوم قدومنا — وأول ضيق للصدور شرحناه[١٦]

ويضاف إلى هذه القطعة المؤلفة من ٢٢ بيتاً ما ورد أيضًا في الرحلة المطبوعة ج١، ص١٩٣-١٩٤-١٩٥ وعددها ٣٩ بيتا وقد أوردها الشيخ الناصري كذلك من غير نسبة لقائلها:

(١)فكم حامد! كم ذاكر! كم مسبح! — وكم مذنب يشكو لمولاه بلواه

(٢)وكم خاضع، كم خاشع متذلل — وكم سائل مدت إلى الله كفاه

(٣)وساوى عزيزٌ في الوقوف ذليلنا — فكم ثوب ذل في الوقوف لبسناه

(٤)وربُّ دعانا ناظر لخضوعنا — خبير عليم بالذي قد أردناه

(٥)ولما رأى تلك الدموع التي جرت — وطول خضوع مع خشوع خضعناه

(٦)تجلى علينا بالمثاب، وبالرضى — وباهي بنا الأملاك حين وقفناه

(٧)وقال: انظروا شعثاً وغبراً نراهمُ — أغثنا،أجرنا يا إلهنا عبدناه

(١٦) يلاحظ أنّ الأبيات رقم ٤ و١٠ و١٩ لم يخترها التقي الفاسي.

(٨)وقد هجروا أموالهم وديارهم وأولادهم، والكل يرفع شكواه

(٩)إليّ، فإني ربهم ومليكهم لمن يشتكي المملوك إلا لمولاه؟

(١٠)ألا فاشهدوا: إني غفرت ذنوبهم ألا فانسخوا ما كان عنهم كتبناه!

(١١)فقد بُدّلت تلك المساوئ محاسناً وذلك وعد من لدنا فعلناه

(١٢)فيا صاحبي، من مثلنا في مقامنا ومَن ذا الذي قد نال ما نحن نلناهُ!

(١٣)على عرفات قد وقفنا بموقف به الذنب مغفور وفيه محوناه

(١٤)وقد أقبل الباري علينا بوجهه وقال: ابشروا فالعفو فيكم نشرناه

(١٥)وعنكم سمحنا كل تابعة جرت عليكم، وأما حقنا قد وهبناه

(١٦)أقلناكم من كل ما قد جنيتم ومن كان ذا عُذر إلينا عذرناه!!

(١٧)فيا من أساء، يا من عصا لو رأيتنا وأوزارنا ترمى، ويرحمنا الله!!

(١٨)وددت بأن لو كنت حول رحالنا ونرجو رحيما كلنا قد رجوناه

(١٩)وقمنا إليه تائبين من الخطا وغفراننا من ربنا قد طلبناه

(٢٠)أمرنا بذاك الظن، والله حسبنا عليه، وفي هذا الحديث نقلناه

(٢١)عليه اتكلنا واطمئنت قلوبنا لما عنده من وسع عفو عرفناه

(٢٢)فطوبى لمن ذاك المقام مقامه وبشراه في يوم التغابن، بشراه

(٢٣)نرى موقفا فيه الخزائن فتّحت ووالى علينا الله منها عطاياه

(٢٤)وصالح مهجوراً وقرّب مبعداً فذاك مقام الصلح فيه أقمناه!

(٢٥)ودارت علينا الكأس بالوصل والرّضى سقينا شراباً مثله ما سقيناه

(٢٦)فإن شئت تسقى ما سقينا على الحمى فحل الوُنا، واحلل محلا حللناه

(٢٧)وفيه بسطنا للرحيم أكفنا فقال: كفيتم عفونا قد بسطناه

(٢٨)واعتقنا كلاً، وأهدر ما مضى وقال لنا: كلّ العتاب طويناه

(٢٩)وابليس مغموم لكثرة ما يرى من العتق محقور ذليلٌ خزيناه

(٣٠)على رأسه يحثوا التراب مناديا بأعواني، ويلاه ذا اليوم ويلاه!

(٣١)وأظهر منه حسرة وندامةً وكلُّ بناء قد بناه هدمناه

(٣٢)تركناهُ يبكي بعدما كان ضاحكاً فكم مذنب من كفه قد سلناه

(٣٣)وكم من منى نلنا بيوم وقوفنا وكم من أسير للمعاصي فككناه

(٣٤)وكم ذا رفعنا للإله مسائلاً ولا أحداً ممن نحب نسيناه

(٣٥)وخُصصت الآباء والأهل بالدعاء وكم صاحب نودي به ودعوناه

(٣٦)كذا فعل الحجاج. هاتك عادة وما فعل الحجَّاج نحن تبعناه

(٣٧)فظل حجيج الله لليل واقفا فقيل: انفروا،فالكلّ منكم قبلناه[١٧]

(٣٨)أفيضوا وأنتم حامدون إلاهكم إلى مشعر جاء الكتاب بذكراه

(٣٩)وسيروا إليه واذكروا الله عنده ذكرنا كما ربّ العباد هداناه!

وقد أورد الشيخ الناصري وهو في أعقاب طواف الإفاضة عشرين بيتًا من الذهبية من غير أن ينسبها مكتفيًا بهذه العبارة كما قيل:

(١)وردت إلى البيت الحرام وفودنا تحن له كالطير حن لمأواه

(٢)وطفنا طوافا للإفاضة حوله ولذنا به بعد الجمار وزرناه

(٣)ومن بعد ما زرنا دخلناه دخلة! كانا دخول الخلد دخلناه

(٤)ونلنا أمان الله عند دخوله كما أخبر القرآن فيما قرأناه

(٥)فيا منزلا قد كان أبرك منزل نزلناه في الدنيا وبيت وطنناه

(٦)ترى حجة أخرى إليه ودخلة وذاك على رب الورى نتمناه

(٧)وإخواننا ما كان أحلى دخولنا إليه، وبتنا في حماه لبثناه

(٨)وإخواننا قد أوحشتمونا هنا لكم فيا ليتكم معنا أوان حففناه

(٩)نطوف به والله يحصي طوافنا ليسقط عنا ما نسينا وأحصاه

(١٠)وبالحجر الميمون عجنا فإنه لرب السما والأرض للخلق يمناه

(١١)تقبل من حبنا لا لا هنا فكم لثمة طول الطواف لثمناه!

(١٢)على لثمة للشعث والغُبر رحمة فكم أشعث! كم اغبر قد رحمناه!

(١٣)وذاك لنا يوم القيامة شاهد وفيه لنا عقد وعهد عهدناه

(١٤)ونستلم الركن اليماني طاعةً ونستغفر المولى إذا ما سلمناه

(١٥)وملتزم فيه التزمنا لربنا عهوداً، وعفوٌ إليه فيه لزمناه

(١٧) على ما أسلفنا فإنّ بعض الأبيات مما أثبته الشيخ الناصري رأى التقي الفاسي أنها مما يختصر.....

(١٦)وكم موقف فيه يجاب لنا الدعا — دعونا به والفضل فيه نوياه

(١٧)ولما قضينا للإله مناسكاً — ذكرناه، والمطلوبَ فيه سألناه!

(١٨)فمن طالب حظاً لدنياه ما لهُ — خلافاً لأخراه إذ الله لاقاه

(١٩)ومن طالب حسناً بدنياه ناوياً — وحسنا بأخراه، وذاك يوفاه

(٢٠)وآخر لا يبغي من الله حجةً — سوى نظرة في وجهه يوم يلقاه[١٨]

وحيث أننا قرأنا عند التقي الفاسي هذا البيت من (الذهبية):

ومن بعد ما طفنا طواف وداعنا — رحلنا إلى قبر الحبيب ومغناه[١٩]

فلنتتبع قول ابن رَشيد في المدينة المنورة. حيث نجده يقول الشعر مرتين: أولاهما عندما زار الروضة عند الوصول. والثانية عندما أتى ليودع الروضة:

وهكذا وجدناه يقول في البداية: (الرحلة الناصرية :ج١١/٩)

(١)وصلنا إليه واتصلنا بقُربه — فلله ما أحلى وصولاً وصلناه

(٢)وقمنا وسلمنا عليه وإنه — ليسمعنا من غير شك شككناه

(٣)وَردَّ علينا بالسلام سلامنا — وقد زادنا فوق الذي نحن زاناه

(٤)كذا كان خلق المصطفى وصفاته — بذلك في الكتب الصحَاح وصفناه

(٥)ومن كان وصَّى بالسلام لأحمد — فبشراه بلَّغنا السلام ونبناه

(٦)وثمّ دعونا للأحبة كلَّهم — وكم من حبيب بالدعاء خصصناه

(٧)وملنا لتسليم الإمامين بعده — فإنهما حقا هناك ضجيعاه!

وكان شعره عندما ورد للوداع هكذا (الرحلة النسخة المطبوعة: ج١١/١٠٢)

(١)وقفنا تجاه المصطفى لوداعه — فلا دمع إلا للوداع صببناه

(٢)ولا صبر. كيف الصبر عند فراقه؟ — وهيهات حسن الصبر عنه صرفناه

(٣)أيصبر ذو عقل لفرقة أحمد؟ — فلا والذي من قاب قوسين أدناه

(٤)فوا حسرتاه من وداع محمد — وأواه من هذا التفرق أواه!!

(٥)فيا وقف توديع له، ما أمرَّه! — ووقت اللقاء، والله ما كان أحلاه!!

(١٨) على العادة هناك أبيات اختارها التقي الفاسي وهناك أخرى حظيت باختيار الناصري.

(١٩) يلاحظ أن التقي الفاسي لم يأت في كتابه العقد الثمين بما قاله ابن رَشيد من شعر أمام الروضة.

(٦)أمولاي! مالي اليوم جرم جنيته؟ فأخرج من دار الحبيب ومغناه؟

(٧)و والله ما اخترت الفراق، وانما قضاء جرى، والله يقضي قضاياه

(٨)سأبكي عليه قدْرَ جهدي فناظري من الشوق لا يرقى من الدمع جفناه

(٩)عسى الله يدنيني لأحمد ثانيا فيا حبذا قرب الحبيب ومدناه؟

(١٠)فيا ربنا ارزقنا لمغناه عودة ! فإن زمانا لا نراه كرهناه!!

(١١)رحلنا وخلفنا لديه قلوبنا وكم جسد من غير قلب قلبناه!

(١٢)ولما تركنا ربْعه من ورائنا فلا نظر إلا إليه رددناه

(١٣)لنغنم منه نظرة بعد نظرة فلما أغبناه، السرور أغبناه!!

(١٤)فلا عيش يهنا بعد فَقْد محمد! إلا فقد محبوبي وعيشي أهنَّاه

(١٥)دعوني أمت شوقاً إليه وحسرةً وخطوا على قبري: بأني أهواه!!

والآن لنعد إلى إطلالة على "الذهبية" ولنبق مع ابن رَشيد في رحلته إلى تلك الديار عام ٦٦١هـ-١٢٠٥. عن طريق البحر أحيانًا والبر أحيانًا على ما قد نفهمه من البيت رق (٢٢) من تعداد التقي الفاسي.

وقد ظهر من ابن رَشيد في قصيدته أنه يحذو حذو الشعراء الأوائل من افتتاح قصائدهم بما يلفت النظر إلى الحبيب أو الديار أو الحِمى. ومن هنا نراه يتحدث عن أيام المحصب[٢٠] في منى ونحن نعلمُ عن القولة المشهورة لأبي الطيب المتنبي: (إذا قيل شعر فالنسيب المقدم...) فابن رَشيد يجري في صدر قصيدته على نحو ما يكون من سائر الشعراء.

لقد أطال في هذا المعنى متخيلاً أنّ المحبوب جدير بكل ذلك التذلل وتلك الآتعاب والمشاق مهما عظمت. فالكل يهون أما الوصول إلى المحبوب الذي يشعر المحب أمامه بأنه ضعيف لا يقدر على شيٍ مهما كانت قوته وبلغت قدرته وعظم سلطانه.

ونحن الموالي في الأراضي جميعها وفي حيّ ليلى من أقلّ عبيدها !!

---

(٢٠) المحصب: موقع جغرافي بين مكة ومنى، وهو إلى منى أقرب على ما يؤكده صاحب معجم البلدان. وقد ورد ذكره في شعر عمر ابن أبي ربيعة:

نظرت إليها بالمحصّب من منى ولي نظر لولا التحرّج عارم! !

كان المبيت بالمحصب مطلوبًا بالنسبة للحجاج، ومن هنا جاءت فتواهم بجواز ترك المحصّب أي المبيت بالمحصّب لغير مقتدىً به.... ومن المعلوم أنّ هناك نوازل يجوز فيها للعالم فيما بينه وبين ربه أن يتصرف حسب اجتهاده، ولكن عليه أن لا يتصرف أمام العامة بما هو غير معهود لديهم حتى لا يشوش على سلوكهم المعتاد لديهم، وهي سياسة في باب الفقه واسعة، وليقس ما لم يقل...

أهوال الطريق بما يصحبها من جوع ونوع. وتعب ونصب. وبعد كل هذا يصل إلى مكة... وهنا نجده يقدم صورةً دقيقةً للجماهير الحاشدة التي تجد نفسها لأول مرّةٍ في المسجد الحرام أما م البيت العتيق: البكاء والدموع والدهشة. والعي عن الكلام[٢١]....

وتكون البداية بطواف القدوم. وهنا يأخذ ابن رَشيد وقته في هذه العبادة التي لها أكثر من دلالة.... يغرق في الطواف مستعينا بهذا المشهد الفريد. ثم يتحدث عن اتجاهه نحو منى وعرفات والمبيت بالمحصّب... وهنا يردد ما ورد في المأثور حول يوم عرفات. مضمنًا شعره ما تناقلته المصادر عن أهمية هذا المكان. وهذا الزمان بحيث تشعر وكأن ابن رَشيد يكتب مذكراته شعرًا عن تحركاته في المنطقة المحرمة على غير المسلم...

وبعد هذا يتحدث عن المصطلح المعروف بالنفر... يعني الانطلاق من عرفات إلى المشعر الحرام: المزدلفة... حيث جمع بين العشاءين وتفرغ لالتقاط الجمرات قبل الالتحاق بمنى حيث نجده تعبر عن فرحته الكبرى مفتخرا على الآخرين بقضاء العيد هنا.!! ثم يتصدد العقبات الثلاث لرمي الجمرات ... ثم يعود إلى المسجد الحرام بمكة مشبها الحجاج بأنهم كالطيور التي تحنّ لمأواها الأول. هناك يقوم بطواف الإفاضة.

ويسجل ابن رشيد هنا لقطة مهمة في حجته قلما تتحقق لحاج من الحجاج ... ويتعلق الأمر بالدخول إلى البيت الحرام. إلى داخل الكعبة ... وقد سجّل في هذه اللقطة في أبيات لا تخلو من إشارة إلى الآية الكريمة ﴿ومن دخله كان آمنا﴾.

ويتعلق ابن رَشيد بالملتزم. ويقف عند الركن اليماني... ويصلي عند مقام إبراهيم... ويشرب من ماء زمزم الذي ورد فيه الحديث المتداول بين الناس... ويختم بالسعي بين الصفا والمروة... على نحو ما اعتدنا قراءته عند الحجاج والعمار.....

وبعد هذا يحكي عن حالات الرحيل وآثاره ويذكر طواف الوداع....

ولم يبق أمامه من مخطط إلا أن يقوم بزيارة المدينة المنورة حيث قرأنا عن القطعتين من الشعر اللتين أوردهما من غير سندٍ لهما على ما أسلفنا.

ومرةً أخرى نذكر أننا لا ندري كيف حصل عندما انقطعت الأخبار عند المغاربة عندما لم يذكروا ولو كلمةً واحدةً عن "الذهبية" التي جادت بها قريحة أستاذهم في مكة المكرمة وفي ضواحيها...

---

(٢١) انظر: (معجم الموضوعات المطروحة في التأليف الإسلامي) . وبيان ما كتب عنها عبد الله بن محمد الحبشي. إصدار المجمع الثقافي - أبو ظبي ١٩٩٧ =١٤١٨. انظر مادة الحج - الحجر الأسود - حجر إسماعيل - الحجون. عرفات - زمزم - سقاية العباس - الطواف - الكعبة. مكة. د. عبد الهادي التازي: عائد من أول بيت وضع للناس. جريدة (العلم) السنة ٥٥ - العدد ١٨٤٩٨ ١٢ شوال ١٤١٢ = ٧ يناير ٢٠٠١.

ولا ندري أيضا كيف أن بعض الرحالة المغاربة إلى الديار المشرقية، وأقصد بهم الحجاج، ظلوا أو بعضهم على الأقل، ينقلون من هذه القصيدة في مذكراتهم دون أن ينسبوها إلى قائلها ابن رَشِيد باستثناء المقّري الحفيد وابن الطيب الشركي على ما أسلفنا....

والمهم بالنسبة إلينا، نحن الذين نؤرخ لأدب الرحلات وما دونه الحجاج والمعتمرون، أننا اكتسبنا رحلةً جديدة لشخصية مغربية لفها النسيان رغم مكانتها العلمية والأدبية..

وهكذا أضفنا إلى ما عرف في التاريخ الوسيط حول الخطاب المتعلق ببث الأشواق لحج بيت الله الحرام وزيارة قبر النبي عليه السلام، أضفنا هذه القصيدة، على نحو ما قرأناه للمقري من قصائد في مدح خير البرية، وما قرأنا عن أبي سالم العياشي، ومحمد بن الطيب العلمي صاحب (القصائد العشرة في الشوق للبقاع المطهرة)، أضفنا إلى كلّ ذلك : " الذهبية" التي فلتت - حسب علمي - لجميع المهتمين بهذه الأبيات المتصلة بتعلق المغاربة بالحرمين الشريفين[٢١].

ويبدو لي أن الفضل في التنبيه إليها والتدليل عليها يرجع، أول الأمر، إلى مغربي حج عام ٨٢٠ = يناير ١٤١٨. واطلع على كتاب (شفاء الغرام) للتقي الفاسي وقرّظه ونوه بصاحبه أيما تنويه على ما نقرأ في العقد الثمين... ويتعلق الأمر بالشيخ أبي القاسم العبدوسي المتوفى عام ٨٣٧ = ١٤٣٤[٢٢]..

أعتقد أن العبدوسي توفر على نسخة كاملة من القصيدة الذهبية وهذا لا يمنع أن تكون "الواسطة" أيضا في حمل أصداء القصيدة الذهبية هو المقري الحفيد الذي افترض كذلك أنه بمناسبة حجته عام ١٠٢٨ = ١٦١٩ وقف أيضا على مخطوط شفاء الغرام التي تضمنت هائية ابن رشيد...

وقد دلتني على ذلك إشارتان اثنتان:

الإشارة الأولى تمثل المقري بأبيات مفصلية مهمة من القصيدة الهائية.

الإشارة الثانية أنه ذكر في النفح إلى جانب وتريات ابن رَشِيد ما سماه " المذهبة"، يقصد "الذهبية" التي لم نر من ردد لها ذكرًا بين المؤلفين المغاربة.

وبعد المقري تمهد الأمر للشيخ أبي العباس أحمد بن ناصر الذي كان له الفضل في إبرازها بطريقةٍ لافتةٍ للنظر جعلتنا نتبع آثارها إلى أن قدمناها لزملائنا... الذين كنت أجد في تشجيعهم ومساعدتهم ما حملني على جمع القصيدة مغتنمًا هذه الفرصة لأدعو وبإلحاح إلى دراستها فإنها ما تزال في أمس الحاجة إلينا ولا سيما وصاحبها علم من أعلام المغرب و المشرق: ابن رَشيد البغدادي المراكشي....

---

(٢١) محمد المنوني: ركب الحاج المغربي - طبعة تطوان.....

(٢١) التقي الفاسي: العقد الثمين ج II ٥٨-٦٧ م. التازي: تاريخ جامعة القرويين II ٣٠٢

إنّ مثل هذه الشخصيات، تمثل جسورا قوية ربطت بين المغرب والمشرق على نحو ما هو الحال بالنسبة لعدد من الرجال الذين التحقوا بالمشرق، واندمجوا مع إخوتهم هناك. فيهم من احتفظ بكنيته واسم أسرته. ومنهم من اكتسب أسماء أخرى وانتسب إلى أسر أخرى... ويكفي أن نذكر كمثل تلك الطوائف، هاته الحشود من الأسر المغربية المتناثرة في مختلف الديار المشرقية. فيهم من أصبح ذا مركز مسؤول أو متنفّذ على ما تتحدث به كتب التراجم. ضمن لائحة العلماء والأئمة والقادة الذين كان لهم دور في صنع تاريخ المناطق والأقاليم التي وصلوها أو قطنوا بها ممن نقف على أسمائهم وتآليفهم وأعمالهم هنا وهناك. ويكفي أن نضرب المثل اليوم باستحضار هذا البغدادي الأندلسي، المراكشي الحجازي التونسي: ابن رَشيد الذي ابتدأ الحديث عنه بالمغرب وانتهى بالمشرق!

Āfāq Al Thaqāfah Wa'l-Turāth

A Quarterly Journal of Cultural Heritage

Published by The Department of Studies and Magazine
Juma Al Majid Center for Culture and Heritage
Dubai - P.O. Box: 55156
Tel.: (04) 2624999
Fax.: (04) 2696950
United Arab Emirates
Email: info@almajidcenter.org

Volume 15 : No. 57 - Rabiâ 1 - 1428 A.H. - April (Nissan) 2007

INTERNATIONAL RECORD NUMBER

ISSN 1607 - 2081

This Journal is listed in the "Ulrich's International Periodicals Directory" under record No. 349378

EDITORIAL BOARD

EDITING DIRECTOR

Dr. Azzeddine BenZeghiba

EDITING SECRETARY

Dr. Yunis Kadury Owaid

EDITORIAL BOARD

Dr. Hatim Salih Al-Dhamin

Dr. Muhammad Ahmad Al Qurashi

Dr. Asma Ahmed Salem Al-Owais

Dr. Naeema Mohamed Yahya Abdulla

ANNUAL SUBSCRIPTION RATE

Countries	U.A.E.	Other
Institutions	100 Dhs.	150 Dhs.
Individuals	70 Dhs.	100 Dhs.
Students	40 Dhs.	75 Dhs.

Articles in this magazine represent the views of their authors and do not necessarily reflect those of the center or the magazine, or their officers.

الشروط الخاصة بنشر كتب محكمة ضمن سلسلة آفاق الثقافة والتراث

١ - أن يكون الموضوع المطروق متميزًا بالجدّة والموضوعية والشمول والإثراء المعرفي. وأن يتناول أحد أمرين:

- قضية ثقافية معاصرة. يعود بحثها بالفائدة على الثقافة العربية والإسلامية. وتسهم في تجاوز المشكلات الثقافية.
- قضية تراثية علمية. تسهم في تنمية الزاد الفكري والمعرفي لدى الإنسان العربي المسلم. وتثري الثقافة العربية والإسلامية بالجديد.

٢ - ألاّ يكون الكتاب جزءًا من رسالة الماجستير أو الدكتوراه التي أعدّها الباحث. وألاّ يكون قد سبق نشره على أيّ نحوٍ كان. ويشمل ذلك الكتب المقدمة للنشر إلى جهةٍ أخرى. أو تلك التي سبق تقديمها للجامعات أو الندوات العلمية وغيرها. ويثبت ذلك بإقرار بخط الباحث وتوقيعه.

٣ - يجب أن يُراعى في الكتب المتضمنة لنصوصٍ شرعية ضبطها بالشكل مع الدقّة في الكتابة. وعزو الآيات القرآنية. وتخريج الأحاديث النبوية الشريفة.

٤ - يجب أن يكون الكتاب سليمًا خاليًا من الأخطاء اللغوية والنحوية. مع مراعاة علامات الترقيم المتعارف عليها في الأسلوب العربي. وضبط الكلمات التي تحتاج إلى ضبط.

٥ - يجب اتّباع المنهج العلمي من حيث الإحاطة. والاستقصاء. والاعتماد على المصادر الأصيلة. والإسناد. والتوثيق. والحواشي. والمصادر. والمراجع. وغير ذلك من القواعد المرعية في البحوث العلمية. مع مراعاة أن تكون مراجع كلّ صفحة وحواشيها أسفلها.

٦ - بيان المصادر والمراجع العلمية ومؤلفيها في نهاية كلّ كتاب مرتبة ترتيبًا هجائيًا تبعًا للعنوان. مع بيان جهة النشر وتاريخه.

٧ - أن يكون الكتاب مجموعًا بالحاسوب. أو مرقونًا بالآلة الكاتبة. أو بخط واضح. وأن تكون الكتابة على وجهٍ واحد من الورقة.

٨ - على الباحث أن يرفق ببحثه نبذة مختصرة عن حياته العلميّة. مبيّنًا اسمه الثلاثي ودرجته العلمية. ووظيفته. ومكان عمله من قسمٍ وكلية وجامعة. إضافةً إلى عنوانه. وصورة شخصية ملونة حديثة.

٩ - يمكن أن يكون الكتاب تحقيقًا لمخطوطة تراثية. وفي هذه الحالة تتبع القواعد العلمية المعروفة في تحقيق التراث. وترفق بالكتاب صور من نسخ المخطوط المحقّق الخطيّة المعتمدة في التحقيق.

١٠ - أن لا يقل الكتاب عن مئة صفحة ولا يزيد عن مئتين.

١١ - تخضع الكتب المقدمة للتقويم والتحكيم حسب القواعد والضوابط التي يلتزم بها. ويقوم بها كبار العلماء والمختصين. قصد الارتقاء بالبحث العلمي خدمةً للأمّة ورفعًا لشأنها. ومن تلك القواعد عدم معرفة المحكمين أسماء الباحثين. وعدم معرفة الباحثين أسماء المحكمين. سواء وافق المحكمون على نشر البحوث من غير تعديلٍ أو أبدوا بعض الملاحظات عليها. أو رأوا عدم صلاحيتها للنشر.

ملاحظات

١ - ما ينشر في هذه السلسلة من آراء يعبر عن فكر أصحابها. ولا يمثّل رأي الناشر أو اتجاهه.

٢ - لا تُردّ الكتب المرسلة إلى أصحابها. سواءً نشرت أو لم تنشر.

٣ - لا يجوز للباحث أن يطلب عدم نشر كتابه بعد عرضه على التحكيم إلاّ لأسباب تقتنع بها اللجنة المشرفة على إصدار السلسلة. وذلك قبل إشعاره بقبول كتابه للنشر.

٤ - يُستبعد أيّ كتابٍ مخالف للشروط المذكورة.

٥ - يدفع المركز مكافآت مقابل الكتب المنشورة وثلاثين نسخة من الكتاب المطبوع.

ISSN 1607 - 2081

Āfāq Al Thaqāfah Wa'l-Turāth

A Quarterly Journal of Cultural Heritage

Volume 15 : No. 57 - Rabiâ 1 - 1428 A.H. - April (Nissan) 2007

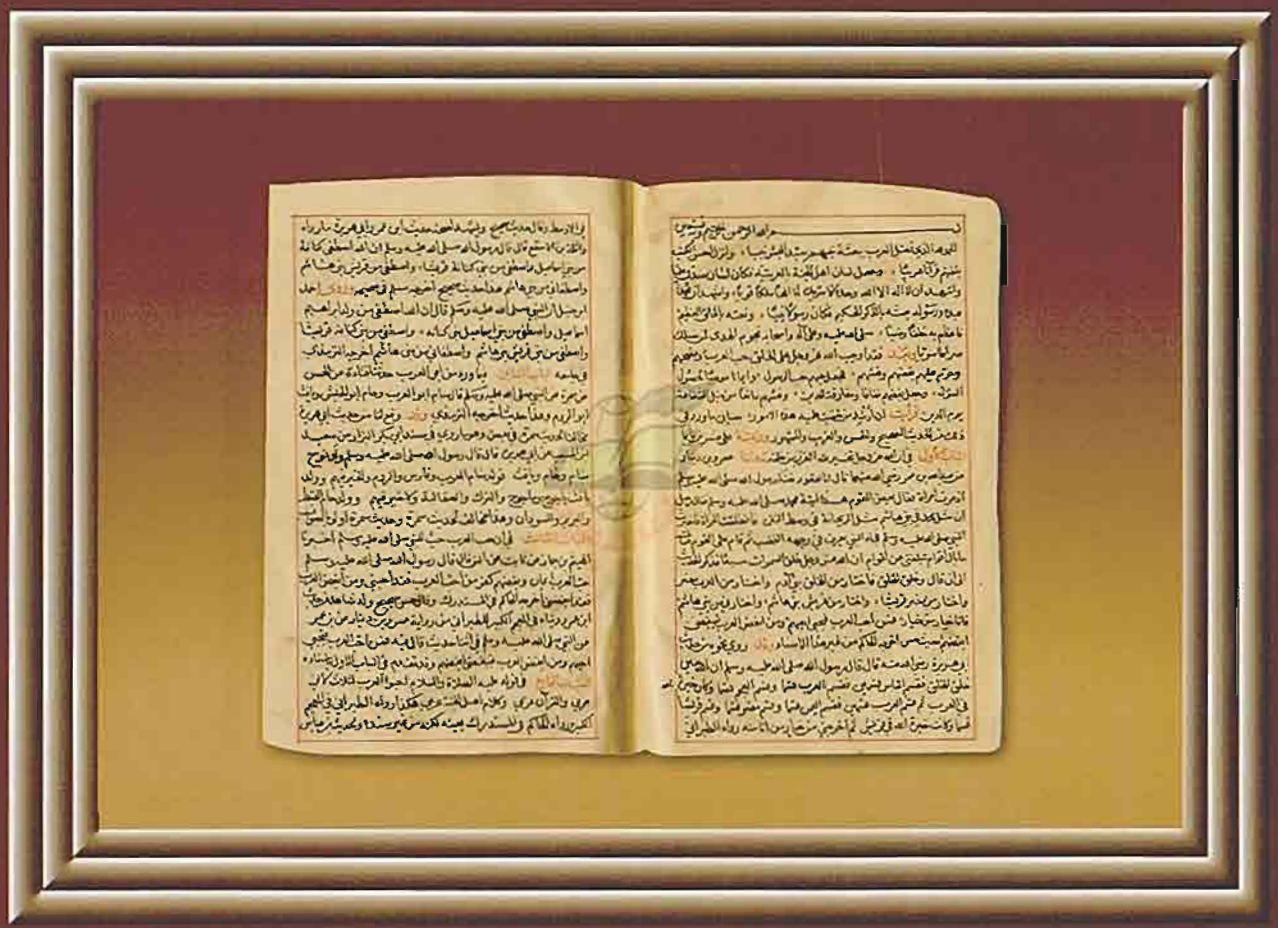

كتاب «القرب في محبة العرب»
لعبد الرحيم بن أبي بكر بن ابراهيم العراقي.

Book of "Al-Qorb Fi Mahabati Al-Arab"
To Abd-Al-Raheem Ben Abi Bakr Ben Ibrahim Al-Iraqi

Published by:
The Department of Researches and Studies
Juma Al Majid Center for Culture and Heritage